الفصل الثاني:_____السياق في الفكر اللغوي العربي و الفكر اللغوي الغربي.

تمهيد :

إن فكرة الزمن في اللغة العربية لا تستكمل إلا في الزمن النحوي، ولكن كان لابد لنا أن نعرف و لو بشيء من التطبيق بين الزمن الصرفي و الزمن النحوي فهما تسميتان حديثتان كان تمام حسان أول من أشار إليهما و لم يكن من السهل الحديث عن الزمن النحوي بعيدا عن الزمن الصرفي و ذلك لان التطبيق و المقارنة يقتضيان الحديث عنهما معا .

و لئن كانت صيغة الفعل هي مجال النظر في الزمن الصرفي فان مجال الزمن النحوي هوالسياق و مجاله هو الجملة العربية بأنواعها الخبرية و الإنشائية و فيه تدخل اعتبارات متعددة و تتضافر القرائن اللفظية من لواصق و أدوات و ظروف و نواسخ مع القرائن المعنوية التي تضبط معنى السياق مع القرائن الحالية التي تعين المقام و التي تأتي من خارج السياق و تكون في ذهن القارئ أو المستمع من قبل .

وقد كان لعلماء اللغة العربية من نحاة و مفسرين و بلاغيين و أصوليين وجهة نظرهم الخاصة حول موضوع السياق لذلك جاء هذا الفصل عرضا تحليليا مقارنا فكرة السياق بين التراث العربي و ما يشتمل عليه من (نحو و أصول و تفسير و بلاغة) و بين السياق في الفكر اللغوي العربي الحديث و المعاصر و مدى إسهامات علماء اللغة المحدثين أمثال تمام حسان و محمود السعران في هذه النظرية متأثرين في ذلك بجهود الغربيين الذين ارتبط اسمهم بهذه النظرية السياقية .

يقوم السياق في أحيان كثيرة بتحديد الدلالة المقصودة من الكلمة في جملتها ، و هي فكرة أشاراليها العلماء، كما أشاروا إلى أهمية السياق أو المقام و تطلبه مقالا مخصوصا يتلاءم معه، و قالوا عبارتهم الموجزة الدالة **(لكل مقام مقال)**، فالسياق متضمن داخل التعبير المنطوق بطريقة ما .ولذلك ركز النحاة على اللغة المنطوقة ، فتعرضوا للعلاقة بين المتكلم، وما أراده من معنى و المخاطب وما فهمه من الرسالة ، والأحوال المحيطة بالحدث الكلامي كما أن الكلمة لا معنى لها خارج السياق الذي ترد فيه[1].

فمصطلح السياق كما سبق الذكر لم يكن جديدا، بل وجد عند علمائنا من نحاة و بلاغيين و مفسرين و أصوليين و غيرهم ، فقد قالوا به منذ مئات السنين ، ومن أجل ذلك نحاول عقد مقارنة بين الفكر القديم للسياق و الفكر الحديث في الدراسات اللغوية على النحو الآتي :

أولا : السياق في الفكر اللغوي العربي القديم :

مما لا شك فيه أن الكلمات ترتبط فيما بينها في السياق بعلاقتها بما قبلها وما بعدها، فالسياق هو المكان الطبيعي لبيان المعاني الوظيفية للكلمات، و يعوّل هذا الترابط بين العناصر السياقية على مفهوم التعليق كما يتجلى ذلك في نظرية النظم عند عبد القاهرالجرجاني ، و كان علماء العربية القدامى – رحمهم الله – قد اهتدوا في وقت مبكر من تاريخ العلوم اللغوية و البلاغية إلى ما يحف بظاهرة الكلام من الملابسات كالسامع و المقام و ظروف المقال وكل ما يقوم بين هذه العناصر من روابط، و سنوجز الحديث عن أهم الدراسات العربية القديمة التي اهتمت بالسياق و نقسمها كالآتي:

1- السياق عند علماء النحو :

[1]– محمد حماسة عبد اللطيف ، النحو والدلالة ،ص 98.

إن فكرة السياق بشقيه الداخلي و الخارجي مطروحة في الفكر الإنساني، و لاسيما الفكر العربي، فقد وجه علماء العربية عنايتهم إلى السياق منذ الفترة الأولى للتأليف في اللغة و النحو سواء في دراسة السياق الجزئي أو السياق الكلي.

و هذا ما نجده واضحا في جهد الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت175 هـ) الذي بنى معجمه (العين) وفق المدرج الصوتي ، فقد بحث في تراكيب الكلمات من مواردها الأولية في الجذر البنيوي الحرفي ، و من ثم تقسيمه على ما يحتله من ألفاظ مستعملة ، و أخرى مهملة لدى تقلب الحروف في التركيب لتعود ألفاظا بداية و نهاية طردا و عكسا، و من ثم إيجاد القدر الجامع بين المستعمل منها من الدلالة، و المهمل من دون استعمال[1]. و قد عوّل أصحاب المعاجم من جاء بعد الخليل على السياق، إذ نراهم لم يكتفوا بذكر الألفاظ و معانيها ، و إنما ربطوا تلك المعاني بسياقاتها من خلال ما ضربوه من الأمثلة التي وردت فيها.

و أما سيبويه (ت180 هـ) فإن فكرة السياق عنده تكمن في هديه للنظام التحليلي الشامل، و إدراكه توظيف قرينة الحال أو المقام في توجيهه النحوي ، فلم تغب هذه القرينة عن وسائل منهجه و تفسيره للكلام ، إذ لاحظ خضوع الكلام لمؤثرات المحيط الخارجي و ملابساته ، فالجملة عنده لا يمكن أن تتحقق صحتها بالنظرة الشكلية، و إنما من خلال ملاحظة ما يكتنف النص من مؤثرات السياق الاجتماعي و ملابساتها للاستعمال اللغوي، و لهذا جعل من هذه القرينة معيارا للحكم على صواب تركيب ما أو عدم صوابه.قال : « و ذلك أن رجلا من إخوانك ، و معرفتك لو أراد أن يخبرك عن نفسه أو عن غيره بأمر فقال : أنا عبد الله مُنْطَلَقاً ، و هو زيد منطلقا كان محالا لأنه إِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يُخْبِرَكَ بالانطلاق وَلَم يَقُلْ هُوَ وَلاَ أَنَا حتى استغنيت أنت عن التسمية ، لأن هو و أنا علامتان للمضمر ، و إنما يضمر إذا علم أنك قد عرفت من يعني ، إلا أن رجلا لو كان خلف

[1]- الخليل بن أحمد الفراهيدي ، العين ، تحقيق مهدي المخزومي و إبراهيم السامرائي،مؤسسة دار الهجرة ،مطبعة الصدر ، ط2، ايران 1409هـ، ص252.

حائط أو في موضع تجهله فيه فقلت من أنت ؟ فقال :أنا عبد الله منطلقا في حاجتك ، كان حسنا. و أما ما ينتصب لأنه خبر مبني على اسم غير مبهم ، فقولك : أخوك عبد الله معروفا. هذا يجوز فيه جميع ما جاز في الاسم الذي بعد هو و أخواتها»[1] .

يبدو أن أثر السياق في النص واضح في تعيين المعنى المقصود ، فالتركيب (**أنا عبد الله منطلقا**) واحد لم يختلف، و هو صحيح من جهة البناء النحوي ، إلا أن الذي اختلف هو السياق الملابس للكلام ،عوَّل عليها سيبويه في جعل التركيب محالا مرة و حسنا اخرى[2].

و قد أكد بعض الباحثين فزع سيبويه إلى السياق بقوله : « وكنت قد نظرت في سياق بحث مختلف في كتاب سيبويه ألتمس هذا العنصر من عناصر التحليل ، فوجدته منذ ذلك العهد المبكر يفزع إلى السياق و الملابسات الخارجية ، و عناصر المقام » [3] فسيبويه لم يصّرح بأثر السياق في الكشف عن المعنى، و لكن ما ساقه من أمثلة يدل على مضمون ما تكلم به علماء اللغة عن السياق.

وقد تحدثت كتب معاني القرآن كذلك عن السياق نذكر **الكيسائي (ت189هـ) و الفراء (ت207 هـ) و الأخفش (ت 215هـ) و الزجاج (ت 311 هـ) و النحاس (338 هـ)** بعد الخليل و سيبويه و غيرهما. و سيأتي إيضاح أثرهم في تعويلهم على السياق في الكشف عن المعنى في ثنايا البحث إن شاء الله تعالى.

و تأتي إشارة المبرد (ت285 هـ) إلى السياق حين عدّ المعنى فيصلا في تصحيح النحو، فذهب إلى أن كل ما صلح به المعنى فهو جيد، و كل ما فسد به المعنى فهو مردود[4]، وهو يؤكد على انتظام الكلام لتحقيق الفائدة منه، كما التفت المبرد إلى المقام،

---

[1] – سيبويه ، الكتاب ، ج2، ص 80–81.

[2] >– نهاد موسى، نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت (د ط) (د ت)، ص 92.

[3] – م ن، ص 82.

[4] – المبرد ، المقتضب، ج04 ، ص 311.

واثر ما يحيط بالسلسلة الكلامية من ظروف و أحوال، تؤثر في فهم المراد، من ذلك حذف الهمزة إذا فهم المعنى و دل عليه دليل[1] كما كان يدعو دائما إلى ائتلاف اللفظ مع المعنى في الصورة الأدبية كما يستطيع أداء مهمته.

و من التفاتات المبرد ما نجده في هذا الشأن يقول في الكلام على حذف المبتدأ :« و لو قلت على كلام متقدم : عبد الله منطلق ، أو صاحبك أو ما أشبه هذا الجاز أن تضمر الابتداء إذا تقدم من ذكره ما يفهمه السامع ، فمن ذلك أن ترى الجماعة يتوقعون الهلال فقال منهم : الهلال و الله ، أي هذا الهلال ، و كذلك لو كنت منتظرا رجلا فقلت زيد ، جاز على ما وصفت لك »[2]

وما يدل على معرفة العرب القدامى بالسياق، و تنبههم إليه، و تقيدهم به ، ما صنفوه من كتب تحدثت عن(**معاني الحروف**)، منها كتاب معاني الحروف للزجاجي **(ت337 هـ)**، و قد وضّح فيه اهتمامه بالسياق الخارجي :(إن معنى الكلمة يستفاد من التركيب و التضام ، فلم يكتف بإيراد المعاني المعجمية)، و هي فكرة أيدها علماء اللغة المحدثين، إذ يرون أن المعنى يستفاد من النظرة الأفقية في التركيب عبر السياق، و ليس النظر إليها منفردة[3] .

و بعد المبرد و الزجاجي ظهر علماء كانت لهم نظرات صائبة في مجال التحليل اللغوي سبق بها (فيرث) و هو ابن جني (ت392 هـ) الذي لجأ في معالجة كثير من قضايا اللغة إلى السياق، و ركز جلّ اهتمامه على السياق، و كان يعده عاملا أساسيا في فهم دلالة الألفاظ و التراكيب، إذ عقد في باب أمساس الألفاظ أشباه المعاني[4]. و آخر في قوة اللفظ لقوة المعنى[5] لأمر يقتضيه السياق ، و كذلك نجده قد لاحظ أن الزيادة الحاصلة

---

[1] – ينظر ، م ن ، ج3 ، ص 294.

[2] – م ن، ص 82.

[3] – الزجاجي، حروف المعاني، تحقيق: علي توفيق الحمد ، مؤسسة الرسالة ط2، بيروت 1986 ص 21.

[4] – ينظر ابن جني ، الخصائص ج3 ، ص 265.

[5] – م ن ، ص 266.

في (ف،ع،ل) الكلمة زادت من المعنى الذي تدل عليه و هو أمر موافق لما قال به علماء العربية: **إن زيادة في المبنى تدل على زيادة المعنى**[1]، و نوافق علماء العربية على هذه الفكرة، لكن نميل إلى تغيير صياغتها لتكون أعم و أشمل، فليست الزيادة في المبنى هي الوحيدة التي تعطي زيادة في المعنى، إذ ربما يكون غير ذلك فيكون النقص في المبنى هو الذي يؤدي زيادة في المعنى ، فنقول: **إن كل تغيير في المبنى يحدث تغييرا في المعنى و زيادة مثل : حذر أقوى من حاذر.**

و قد كان إحساسه بطبيعة اللغة بالتوسّع في التعبير، و بأن المعنى الحقيقي القريب (الذي تتحدث عنه المعاجم عادة) ليس كل شيء في اللغة ، بل إنّ الكثرة في الاستعمال مخالفة لهذا المعنى الذي يسمى المعنى الحقيقي، و على هذا المفهوم يبني أحكامه في هذا السياق ، و ترجع إلى اعتقاده أن علل النحويين أقرب إلى علل المتكلمين ... و ذلك أنهم إنما يحيلون على الحسّ، و يحتجون فيه بثقل الحال أو خفّتها على النفس[2].

و تأسيسا على هذه المرجعية يبحر ابن جني في تفسير الخطابات ، وهناك مبادئ أخرى يعملها في مشروعه[3] ، يقول في (باب في أنّ العرب قد أرادت من العلل و الأغراض ما نسبناه إليها، وحملناه عليها) : « اعلم أن هذا موضع في تثبيته وتمكينه منفعة ظاهرة لأن فيه تصحيح ما ندعيه على العرب من أنها أرادت كذا لكذا، و فعلت كذا لكذا، و هو أحزم لها ، و أجمل بها، و أدل على الحكمة المنسوبة إليها... و ليس يجوز أن يكون ذلك كله في كل لغة لهم، و عند كل قوم منهم ، حتى لا يختلف و لا ينقص ، على كثرتهم و سعة بلادهم و طول عهد زمان هذه اللغة لهم و تصرفا على ألسنتهم اتفاقا

---

[1] – م ن ، ج3 ، ص 267.

[2] - م ن، ج 1، ص53

[3] – صلاح الدين زرال، الظاهرة الدلالية عند علماء العربية حتى نهاية القرن الرابع الهجري،مطبعة الدار العربية بيروت، ط1، 2008 م ص 429.

وقع، حتى لم يختلف فيه اثنان، و لا تنازعه فريقان، إلا وهم له مريدون، و بسياقه على أوضاعهم فيه معنيون ...» [1]

إن المبدأ الذي يشتغل عليه ابن جني هو تقرير الحكمة التي يتحلى بها أهل اللغة الأصليون في الأغراض و القوانين التي استنبطها اللغويون الرواد ، و أنها مستندة إلى قبول طباع أهل اللغة و نفوسهم لذلك. و المبدأ الثاني الذي ينبغي على ما سبق من النظر اللغوي أن النحو المستقى منه لا يتناقض بالضرورة مع هذه الحكمة، بل يكشف عنها، و يثبت اتكاءها على قابلية النفوس و مساعدة الطباع[2] .

و يؤكد ابن جني أيضا تلك القضية التي تقول بأهمية الظروف و الملابسات أي سياق الحال في إبراز المعنى الدلالي، حين تعرض لقضية الاشتقاق، يقول: « و لهذا الموضوع نفسه ما توقف أبو بكر عن كثير مما أسرع إليه أبو إسحاق من ارتكاب طريق الاشتقاق و احتج أبو بكر عليه بأنه لا يؤمن أن تكون هذه الألفاظ المنقولة إلينا قد كانت لها أسباب لم نشاهدها و لم ندر ما حديثها و مثل له بقولهم :"رفع عقيرته ، إذا رفع صوته ، قال له أبو بكر:"فلو ذهبنا نشتق لقولهم (ع،ق،ر) من معنى الصوت لبعد الأمر جدا و إنما هو أن رجلا قطعت إحدى رجليه ، فرفعها و وضعها على الأخرى ، ثم نادى و صرح بأعلى صوته ، فقال : رفع عقيرته أي رجله المعقورة قال أبو بكر : فقال أبو إسحاق : ليس أدفع هذا و لذلك قال سيبويه في نحو من هذا : أو لأن الأول وصل إليه علم لم يصل إلى الآخر بمعنى ما نحن عليه من مشاهدة الأحوال و الأوائل»[3].

كما أدرك ابن جني أيضا بأن من وسائل تكثير اللفظ لتكثيرالمعنى ؛ أي انحراف اللفظ الأصلي الذي يؤدى به إلى المعنى الأصلي للفظة المزيدة ، و على هذا الأساس جاءت أمثلته من نحو : باب فَعَلَ و افتَعَلَ فافتعل أقوى من فَعَلَ مثل : **قدر و اقتدر** و

---

[1] – ابن جني، الخصائص ، ج1 ، ص 211،210

[2] – صلاح الدين زرال، الظاهرة الدلالية عند علماء العربية، ص 230

[3] – عند النعيم خليل ، نظرية السياق بين القدماء و المحدثين ، دراسة لغوية ، نحوية ، دلالية دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر ، ط1، 2007 ص 153.

منه قوله تعالى : (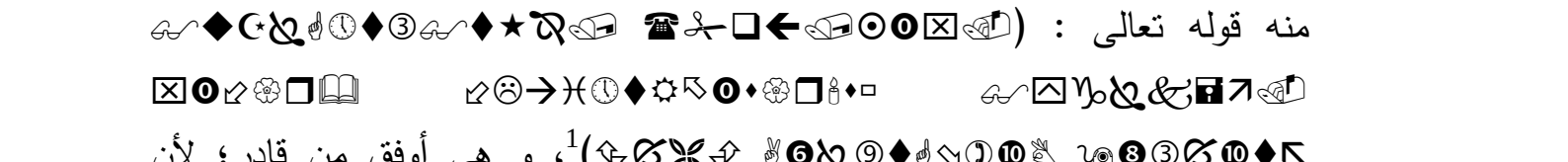)[1]، و هي أوفق من قادر؛ لأن الموضوع موضوع تفخيم الأمر و إظهاره بشدة ، و منه قوله تعالى: (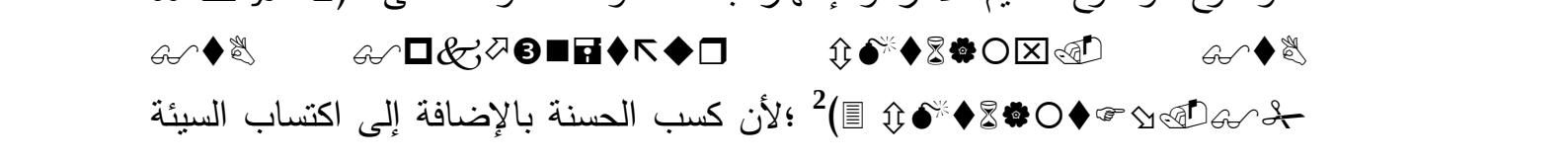)[2] ؛لأن كسب الحسنة بالإضافة إلى اكتساب السيئة أمر يسير و من ذلك أن يعدل بفعال عن فعيل كقولهم في المبالغة من جميل ووضي ، جمّال ووّضاء، (**فزادوا في اللفظ هذه الزيادة لزيادة معناه**)[3]، فأدرك ابن جني أن زيادة المبنى تؤدي إلى زيادة المعنى، و فقا للسياق الذي ترد فيه اللفظة.

والقراءة المتأنية في صفحات (**الخصائص**) تظهر لنا أن أبا الفتح كان رائدا في مجال التحليل السياقي، فقد اهتم بسياق الحال و تحليل الحدث الكلامي من أجل كشف المعنى ، إلا أن نظرات هذا العالم عن السياق شأنها شأن زملائه في التراث، فقد جاءت متفرقة ، تفتقر إلى تنظيم رابط لها في إطار يجمعها في شكل نظرية ، فإذا ما حاولنا لمّ شتاتها، تبين لنا منها وعي ابن جني بسياق الموقف الكلامي، دليل ذلك النص جاء الذي جاء مدللا على أن ما يشاهده من أحوال المتكلمين و ملامح تقسيماتهم ممن أتيحت لهم رؤيتهم في ثنايا حديثهم ، وإن استعانته بما نقله العلماء من أحوال المتكلمين وسجلوه عمن لم يحضر حديثهم،يساعده على استبيان ما قصدت إليه العرب من حديثها أو شعرها، إذ يقول:« والذي يدل على أنهم قد أحسّوا ما أحسسنا،و أرادوا و قصدوا ما نسبنا إليهم من إرادته و قصده شيئان : أحدهما حاضر معنا ، و الآخر غائب عنا، إلا أنه مع أدنى تأمل في حكم الحاضرمعنا، فالغائب ما كانت الجماعة من علمائنا تشاهده من أحوال العرب و وجوهها ، و تضطر إلى معرفته من أغراضها و قصدوها: من استخفافها

---

[1] – سورة القمر ، 42.

[2] – سورة البقرة، 289.

[3] – ابن جني، الخصائص، ج1، ص222 .

شيئا أو استثقاله، و تقبله أو إنكاره و الأنس به أو الاستيحاش منه و الرضا به ، أو التعجب من قائله و غير ذلك من الأحوال الشاهدة بالقصود بل الحالفة على ما في النفوس.»[1]

فهو في ذلك يشير إلى سياق الحال، و إلى أثر الحدث غير الكلامي للمشاركين لا بل إن تتبعنا إشاراته في كتابه (**الخصائص**) يضعنا أمام دليل مادي على تشبع وعيه بأهمية السياق الاجتماعي في استكناه المعنى ، و هو الأساس الذي أقام عليه (فيرث) نظريته.

ب- السياق عند علماء البلاغة:

أما عن ملامح فكرة السياق عند البلاغيين ، فقدّموا لدراسة المعنى الدلالي فكرتين تعدان اليوم من أفضل ما وصل إليه علم اللغة الحديث في بحثه عن المعنى الاجتماعي الدلالي، و أول هاتين الفكرتين فكرة (**المقال**)، و الثانية فكرة (**المقام**) وكان علماء البلاغة قد ربطوا بين هاتين الفكرتين بعبارتين شهيرتين أصبحتا شعارا يهتف به كل ناظر في المعنى،وهي عبارة **(لكل مقام مقال)** و **(لكل كلمة مع صاحبتها مقام)**[2]

و قد نالت هاتان المقولتان اهتمام علماء البلاغة، و أخذتا تقرران وجود علاقة لا يمكن تجاوزها بين المقال و المقام، فالمقال دليل على المقام و معرفة المقام مهمة في فهم المقال[3]. و كانتا أساسا مهما في توجيه البحث البلاغي، و هذا يدل على أنهم سبقوا الدارسين الغربيين بمئات السنين؛ لأن تحليل المعنى على أساس الموافقة بين النص و السياق أو المقال و المقام يعد من أحدث نظريات دراسة اللغة، و هو المركز الذي يدور حوله علم الدلالة الوصفي في الوقت الحاضر[4]. فانطلقوا في مباحثهم حول فكرة

---

[1] – ابن جني، الخصائص، ج1، ص 245.

[2] – الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة ص 12.

[3] – ينظر، م ن ، ص80.

[4] – محمد عبد المطلب، البلاغة و الأسلوبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة (د ط) 1984 ص 288.

السياق، و ربطها بالصياغة، أو بمعنى آخر ربط الصياغة بالسياق[1] و ضرورة مراعاة البليغ للأحوال و المقامات التي يقتضيها (الحال)، كما لا يخفي أن (السياق) عندهم يختلف في التسمية فيطلقونه على (المقام).

فكل ما قاله المحدثون من ظروف اجتماعية و مقامية تكون سياق الموقف لخصه البلاغيون القدماء في عبارة **(لكل مقام مقال)**، و كلمة المقام تقتضي الظروف السياقية و الاجتماعية المصاحبة للحدث الكلامي.

ولعل أول من أشار إلى المقام و بين أهميته بشر بن المعتمر، **(ت210 هـ)** ،إذ نقل عنه الجاحظ **(ت255 هـ)** قوله: « المعنى ليس يشرف بأن يكون من المعاني الخاصة و كذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة ، و إنما مدارالشرف على الصواب و إحراز المنفعة، مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال. »[2]

و يقرر البلاغيون أنه ينبغي للمتكلم أن يعرف حال المخاطب، ليراعيها في نسج عبارته، فيكيف تعبيره على وفق الحال التي عليها ، و قد أشار إلى ذلك بشر بن المعتمر، فقال: « ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، و يوازن بينها و بين أقدار المستمعين و بين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما، و لكل حالة من ذلك مقاما حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني و يقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات و أقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات ...»[3] .

و يذهب ابن قتيبة **(ت 276 هـ)** إلى أهمية مراعاة مقتضى الحال ، فيرى أنه يجب على الكاتب أن يجعل ألفاظه ((على قدر الكاتب و المكتوب إليه و ألا يعطي خسيس الناس رفيع الكلام ، ولا رفيع الناس خسيس الكلام .))[4]، و يرى أن الإيجاز و الإطناب يخضعان لمقامات الكلام و مقتضياته، فالإيجاز ((ليس بمحمود في كل

---

[1] – تمام حسان، اللغة العربية معناها و مبناها، ص 337.

[2] – الجاحظ ، البيان و التبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الجاحظ ط2 القاهرة 1970 ج1 ص136.

[3] – م ن، ج1 ص138.

[4] – ابن قتيبة ، أدب الكاتب تحقيق: محمد الدالي،مؤسسة الرسالة ط1 بيروت 1982،ص 18.

موضع، و لا بمختار في كل كتاب ، بل لكل مقام مقال ، و لو كان الإيجاز محمودا في كل الأحوال لجرّده الله تعالى في كل القرآن ، و لم يفعل الله ذلك ، و لكنه أطال تارة للتوكيد، وحذف تارة للإيجار، و كرر تارة للإفهام ... و ليس يجوز لمن قام مقاما في تحضيض على حرب... أو صلح بين عشائر أن يقلل الكلام و يختصره، ولا لمن كتب عامة كتابا في فتح أو استصلاح أن يوجز.... ولكن الصواب أن يطيل و يكرر ويعيد و يبدئ، ويحذر وينذر))[1] .

و يعّبر البلاغيون عن مفهوم السياق الحالي بما يسمى مقتضى الحال، و يربطون بلاغة الكلام بموافقته لمقتضى الحال ، و مطابقة الكلام لمقتضى الحال هي أساس البلاغة كلها، و هي التي يجب مراعاتها في الكلام لكي يصبح بليغا يتعدى مرحلة التأثير **(الإبداع وصولا إلى الإعجاز)**[2] يقول القزويني: « ومقتضى الحال مختلف، فإن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التنكير يباين مقام التعريف ،ومقام الإطلاق يباين مقام التقييد، و مقام التقديم يباين مقام التأخير، ومقام الذكر يباين مقام الحذف .. »[3]

و قد نالت هذه الإشارة (العلاقة بين المقام و المقال) اهتمام البلاغيين[4] و كانت أساسا مهما في توجيه البحث البلاغي.

فمراعاة اللغويين و البلاغيين للمقام أو سياق الحال أكثر من غيره فهذا لا يعني أنهم أهملوا السياق اللغوي، فقد استعملوا السياق و التفتوا إليه ، وإن نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني (ت**471 هـ**) قامت على مفهوم السياق اللغوي أي تتابع الألفاظ على نسق معين، و تعلقها و التئامها، و اللفظ عنده لا يكتسب دلالته و قيمته اِلا من السياق الذي يرد فيه، يقول: « معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض ، و الكلام : اسم و فعل و حرف و للتعلق فيما بينها طرق

---

[1] – م ن ، ص 19–20.

[2] – عبد القادر حسين أثر النحاة في البحث البلاغي ، دار نهضة مصر للطبع و النشر (د ط) القاهرة 1970 ص193.

[3] – الخطيب القزويني الإيضاح في علوم البلاغة ص 11–12.

[4] – م ن ، ص80 وينظر السكاكي مفتاح العلوم ت أكرم يوسف مطبعة دار الرسالة ط1 1981، ص 256.

معلومة ، و هو لا يعدو ثلاثة أقسام : تعلق اسم باسم و تعلق اسم بفعل و تعلق حرف بينهما.»[1] إذ (إن الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، و لكن لأن يضمّ بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينهما فوائد.)،[2] وهذا يعني أن عبد القاهر يرى أن تركيب الكلمات هو الذي يعطي لكل جزئية أهميتها في السياق... فالسياق هو نقطة البدء، بحيث لا يمكن وجود كيان للتعبير إلا من خلاله ، و حينئذ من الواجب رصد السياق، ثم البحث عن الألفاظ و علاقاتها فيه ثانيا.[3]

فكما سبق الذكر أن الكلمات ترتبط فيما بينها في السياق بعلاقاتها بما قبلها وما بعدها و يعول هذا الترابط بين العناصر السياقية على مفهوم التعليق، كما يتجلى ذلك في نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني ، فقد يتعلق الاسم بالفعل، فيكون الاسم فاعلا أو يكون التعلق بين الاسم والاسم، فيكون الثاني خبرا للأول الذي هو المبتدأ، أو يكون صفة أو تأكيدا أو بدلا و هكذا.

و من ضمن المظاهر السياقية ما يمكن وصفه بشروط التعلق السياقي كالتكلم و الحضور و الغيبة (للشخص) و الإفراد و التثنية و الجمع (في العدد) و التذكير و التأنيث (في النوع)...

وراح عبد القاهر يصرّح بالسياق في أثناء حديثه عن سر إعجاز القرآن الكريم إذ يرى أن العرب (أعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه ، وخصائص صادفوها في سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادئ آيه ومقاطعها، ومجاري ألفاظها مواقعها...)،[4] و تصريحه بالسّياق يدلّ على إدراكه أهمية مراعاة السياق اللغوي في بيان دلالات الألفاظ و معرفة إعجاز القرآن فضلا عن مراعاة سياق الحال.

---

[1] – عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز – المقدمة– ،ص1.

[2] – م ن، ص 537.

[3] – محمد عبد المطلب،البلاغة و الأسلوبية، ص 241–242.

[4] – عبد القاهر الجرجاني،دلائل الإعجاز ص ***39***.

ولا تقف عناية البلاغيين بالسياق عند التنظير، فقد وظفوه في بعض الظواهر ، مثل ظاهرة التقديم و التأخير، من ذلك قوله تعالى: ( )[1] فقد قدم الإناث على الذكور مع تقدمهم عليهنّ ،لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاء لا ما يشاؤه الإنسان[2].

ويحق لنا القول إن البلاغيين عند اعترافهم بفكرة **(المقام)** متقدمون ألف سنة تقريبا على زمانهم ؛لأن الاعتراف بفكرتي **(المقام)** و **(المقال)** باعتبارهما أساسين متميزين من أسس تحليل المعنى يعدّ الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة، و يعتقد علماء الدلالة المحدثون في الغرب أن الذي وضع مصطلح سياق المقام، أولا العالم الاجتماعي ماليونوفسكي، و ثانيا اللغوي فيرث (firth، و كلاهما مهتم بتحديد المعنى، من خلال السياق الذي تستعمل فيه اللغة، و يقول **تمام حسان** : « ولم يكن مالينوفسكي و هو يصوغ مصطلحه الشهير (*contextof situation*) يعلم أنه مسبوق إلى مفهوم هذا المصطلح بألف سنة أو ما فوقها إن الذين عرفوا هذا المفهوم قبله سجلوه في كتب لهم تحت اصطلاح (المقام) و لكن كتبهم هذه لم تجد من الدعاية على المستوى العالمي ما وجده اصطلاح مالينوفسكي من تلك الدعاية بسبب انتشار نفوذ العالم الغربي في كل الاتجاهات و براعة الدعاية الغربية الدائبة»[3] .

السياق عند علماء التفسير :

عرف المفسرون منذ بداية التأليف في القرآن الكريم الفرق بين ظاهر الألفاظ و معانيها فكان فهمهم لهذا الفرق تفريقا منهم بين المعنى (المقالي)، وهو مكون من المعنى

---

[1] – سورة الشورى *49*

[2] – تمام حسان، اللغة العربية معانيها و مبناها ص *337*.

[3] – م ن ، الموضع نفسه .

الوظيفي يضاف إلى المعنى المعجمي، و هو يشمل القرائن المقالية، كلما وجدت و المعنى المقامي وهو مكون من ظروف أداء المقال وهي التي تشتمل على القرائن الحالية[1] .

الحق أن من يقرأ في الأصول التي التزم بها المفسرون في عملهم، و يقابلها مع نظرية فيرث تتكشف له أصالة هذه الفكرة في التراث العربي الإسلامي،و سبق تطبيقها على تنظير فيرث، و نستطيع أن نتتبع تبلور مجموعة من العناصر التي تكون لنا هيكل هذا المنهج عند علماء التفسير، و في مقدمتها الأنماط التي استحالت عندهم شروطا وضعوها للمفسر، لاختبار كفايته التي تتمثل في إتقانه لمجموعة من علوم تشبه إلى حد ما مراحل التحليل في نظرية فيرث[2].فقد اشترطوا في المفسر شروط لها علاقة بالسياق، فالتفسير يستمد (من علم اللغة و النحو و التصريف و علم البيان و أصول الفقه و القراءات و يحتاج لمعرفة أسباب النزول و الناسخ و المنسوخ)[3] .

فمعرفة السياق تقتضي معرفة المفسر بألفاظ اللغة العربية و دلالاتها، و معرفته بهذه العلوم معرفة تفصيلية، بل راحوا ينظرون و يستحضرون النص القرآني كله عند تفسير بعضه، يقول علماء التفسير في من أراد تفسير القرآن: « طلبه أولا من القرآن فما أجمل منه في مكان قد فسر في موضع آخر، و ما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر منه ... فإنها شارحة للقرآن و موضحة له ... فإن لم يجده في السنة رجع إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن و الأحوال عند
نزوله و لمّا اختصوا به من الفهم التام و العلم الصحيح»[4]، فهذا إدراك واضح من المفسّرين لعناصر السياق و أثرها في الكشف عن المعنى، و الوصول إلى تفسير القرآن

---

[1] – تمام حسان ، اللغة العربية معناها ومبناها ، ص339.

[2] – طاهر سليمان حمودة، دراسة المعنى عند الأصوليين، الدار الجامعة للطباعة و النشر و التوزيع، (دط) (دت) ص221.

[3] – م ن ، ص 220.

[4] – السيوطي، الإتقان في علوم القرآن ص200.

الكريم، فالمعنى لا يحصل إلا في نطاق علاقات سياقية، و لا يمكن فصل معنى الكلمة بأي حال من الأحوال عن السياق الذي يعرض فيه.

فمعرفة السياق تقتضي معرفة المفسّر بألفاظ اللغة العربية و دلالاتها، وهذه المعرفة ضرورية للمفسّر، وإلا فلا يحل له الإقدام على تفسير كتاب الله تعالى، وقد نقل عن مالك بن أنس **(ت179 هـ)** قوله: « **لا أوتي برجل يفسّر كتاب الله غير عالم بلغة العرب إلا جعلته نكالا»**[1]

الظاهر أن مفهوم السياق عند المفسّرين أكثر وضوحا من غيرهم، فقد أدرك المفسّرون ومنهم أصحاب الوجوه و النظائر أهمية السياق في الكشف عن معنى الألفاظ، فقد ظهرت مصنفات شارك فيها علماء اللغة و المفسّرون، ذكروا فيها معاني لألفاظ تعدد معناها مع بقاء اللفظ واحدا، و التفرقة بين معاني هذه الألفاظ مبني على أساس سياقي، فعلاقة هذه اللفظة بما يجاورها من ألفاظ و لها أكبر الأثر في الكشف عن معناها و للمفسرين مناهج شتى في تفسيرهم فمنهم من عكف فيه على اللغة، و منهم من عوّل على البلاغة و هكذا ...ومنهم من صرح بالسياق ووجوب مراعاته في التفسير، يقول الطبري **(ت310 هـ)**: « **لا يجوز صرف الكلام عما هو في سياقه إلى غيره إلا بحجة يجب التسليم لها من دلالة ظاهر التنزيل أو خبر عن الرسّول تقوم به حجة»**[2]. ويتخذ الزمخشري **(ت538 هـ)** من السّياق وسيلة لفهم البيان القرآني و بلاغته، ففي قوله تعالى : **(** **)**[3] ، لاحظ نظم الآية وعلاقة الألفاظ مع متساوقاتها هو الذي أظهر دلالتها ،فيقول:« جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق، و ذلك لمجيئها متآخية ، آخذا بعضها بعنق بعض. »[4] و يؤكد دلالة السياق الذي

[1] – الزركشي البرهان عي علوم القرآن تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط1 مصر (دت) ج1 ص 292.

[2] – الطبري، تفسير الطبري دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع (دط) بيروت 1995 ج6 ص 23.

[3] – سورة البقرة ، 2.

[4] – الزمخشري ، الكشاف،ج1ص21.

يكشف عن معنى آخر في الآية فيعرض وجوها أخرى لتفسيرها معوّلا على السياق وخاصة السياق (الاجتماعي)، فيشير إلى أن التنغيم المعين فيها يؤدي إلى أن تكون كلها جملة واحدة أو جملتين أو ثلاث جمل،[1] ولعل الزمخشري قد تأثر بآراء عبد القاهر الجرجاني، فيما يتعلق بالسياق الاجتماعي.

و النص القرآني في نظر المفسرين وحدة متكاملة يفسّر بعضها بعضا و ((هناك في الحقيقة معنى يفهم من السياق أكثر مما يفهم من الوحدات الصريحة التي تؤلفه أي أن السياق قد يعطي المدلولات التي لا يمكن أن تعزى بشكل مباشر وسهل إلى وحدة معينة أو وحدات مضمومة بطريقة آلية، وهذه الإشارة المتعلقة بما يسمونه فاعلية السياق أو نشاطه إشارة مهمة ينبغي أن تعد جوهر المشكلة إزاء كل نص)[2]

4- السياق عند علماء الأصول:

شارك الأصوليون علماء العربية في كثير من المباحث ، ونظروا في الظواهر اللغوية و ناقشوها، ويعد مصطلح السياق من المسائل اللغوية المهمة في ميدان البحث الأصولي اللغوي، إذ لا يخفى أن هناك صلة وثيقة بين اللغة وعلم الأصول، ولهذا نراهم قد تناولوا ظاهرة السياق ، و تحدثوا عنها كثيراً في مباحثهم تلك، لصلتها الوثيقة بعلوم الشريعة ، و لأنها عندهم أداة التعبير، وفهم النصوص الشرعية من (قرآن وسنة) متوقف على فهم سياق تلك النصوص، ولذلك نراهم قد تناولوا السياق، و تحدّثوا عنه، وكانوا أسبق من غيرهم في التصريح بفكرة السياق وربما حددوا مفهومه، لصلته الوثيقة بعلوم الشريعة.

لقد نبه الأصوليون على أن اللغة ظاهرة اجتماعية[3]، ولها أثر مهم في حياة المجتمع، و(لا يفتأ الأصوليون ينبهون في كثير من المواضيع إلى أن الألفاظ المفردة و التراكيب تتعرض بسبب السياقات اللفظية والمقامية المختلفة لألوان من التغيير الدلالي،

---

[1] – م ن، الموضع نفسه.

[2] – مصطفى ناصف، نظرية المعنى في النقد العربي، دار الأندلس ،ط3،1981،ص161–162.

[3] – طاهر سليمان حمودة، دراسة المعنى عند الأصوليين،ص225.

ولذلك ينبهون إلى ضرورة الاستعانة بالسياقين اللفظي و الحالي أو ما تسميه نظرية السياق بالموقف الكلامي بجميع عناصره)[1]، و مصداق ذلك نجده في مباحث الألفاظ عندهم ، كمبحثهم عن العام و الخاص، إذ لا يراد باللفظ العام – غالبا– دلالته على العموم، وذلك أن(العموم إنما يعتبر بالاستعمال، ووجوه الاستعمال كثيرة ولكن ضابطها مقتضيات الأحوال التي هي ملاك البيان)، وما دراستهم للمطلق والمقيد و المجمل و المبين وغيرها ما هي إلا مراعاة للسياق اللفظي للقرآن و السنة[2] .

يبدو أن الشافعي (ت204هـ) من الأصوليين الذين صرّحوا بمصطلح السياق وأشار إلى أهميته في الكشف عن المعنى، فالكلام قد يكون (عاما ظاهرا يراد به العام و يدخله الخاص فيستدل على هذا ببعض ما خوطب فيه ، وعاما ظاهرا يراد به الخاص وظاهرا يعرف من سياقه أنه يراد به غير ظاهره ، فكل هذا موجود علمه في أول الكلام ،أو وسطه ، أو أخره)[3] ، ولعله وظف السّياق في استنباط الأحكام من الآيات القرآنية ، ففي قوله تعالى: (✂•❶✆◑◆❐ ↖☹↗⬇↘◑❋🖬•☪ ◆↗🖉🖋❁○✆)✲✡❧🖋✂ ⌘Ⅱ↘⇔■🖬♦⌛•▫ ❍Ⅱ←℁■🖬🖂♉❐🕮 ⍰🖋❐↑❹⇙➔□▦✆▯ ·🖈➔♎❑↗▯✈○↘✍❐🕯•▫ ⇙❐❐🕮)[4]، وقوله تعالى: ❍Ⅱ➔♎❑↖○✆♒❸❁· ⌨🖋❐↖❷⇙➔□▦✆▯ ◆↗🖉🖋❁○✆)✲✡❧🖋✂ ✂•❶✆◑◆❐) ↖☹↗⬇↘◑❋🖬•☪ ·🖈➔♎❑↗▯✈○↘✍❐🕯•▫ ❍Ⅱ←℁■🖬🖂♉❐🕮 ⌘Ⅱ↘⇔■🖬♦⌛•▫ ▯✆❐↑❹⇙➔□▦✆▯ ⇙❐❐🕮 ⍰🖋❐)وقوله تعالى : ❍Ⅱ➔♎❑↖○✆♒❸❁· ◆↗🖉🖋❁○✆)✲✡❧🖋✂ (✂•❶✆◑◆❐ ↖☹↗⬇↘◑❋🖬•☪ •☒•▫ ❍Ⅱ←℁■🖬🖂♉❐🕮 ⌘Ⅱ↘⇔■🖬♦⌛•▫ ⌘Ⅱ⇔•✈▯☪♦③ ❍Ⅱ➔♎❑➔🖬→🖋⇙➔•✍ 🕮❐↘ᔓ❐◆◷♉🖂℁Ⅱ←℁❍)[5] ، قال: « بلغن أجلهن : يحتمل قارين البلوغ وبلغنّ

---

[1] – طاهر سليمان حمودة، دراسة المعنى عند الأصوليين ، ص226–227.

[2] – م ن، ص 227.

[3] – فوزي إبراهيم، السياق ودلالته في توجيه المعنى،ص28.

[4] – سورة البقرة،231.

[5] – سورة البقرة،232.

: فرغنّ مما عليهنّ، فكان سياق الكلام في الآيتين دليلا على فرق بينهما فعلى الرغم من تشابه الآيتين في الحديث عن بلوغ الأجل إلا أنهما تدلان على افتراقهما بسياق الكلام»[1].

وتأسيسا على ما تقدّم يمكن القول إن الأصوليين استعملوا مصطلح السياق استعمالا واضحا في مواضع مختلفة ، وأرادوا به مايدلّ عليه السّياق أو الدلالة المستمدّة من سياق الكلام ومقصوده ، ومما أشار إليها الزركشي (ت794هـ)، إذ يرى أن (دلالة السّياق أنكرها بعضهم ومن جهل شيئا أنكره ، وقال بعضهم : انهامتفق عليها في مجاري كلام الله تعالى..... والسياق يرشد إلى تبيين المجملات ،وترجيح المحتلات وتقرير الواضحات ،وكل ذلك بعرف الاستعمال ،فكل صفة وقعت في سياق المدح كانت مدحا وإن كانت ذما بالوضع ،وكل صفة وقعت في سياق الذم كانت ذما و إن كانت مدحا بالوضع)[2] فالاستعمال هو الفيصل في معرفة المعنى لا الوضع الذي وضع له اللفظ.[3]

هكذا جاء حديث الأصوليين عن السياق بكل جوانبه من منطلق البحث عن الدلالة أساس البحث الأصولي، وصولا إلى الحكم الشرعي الذي تستقيم معه الحياة الاجتماعية،ومن ثم فقد عرضوا للكلمة على مستوى اللفظ المفرد، و على مستوى التركيب الذي هو أساس السّياق اللغوي، آخذين في الاعتبار كثيرا من الجوانب التي تستبين معها الدلالة، كالعموم و الخصوص و الحقيقة و المجاز و المناسبات و قصد الشارع و اجتماعية اللغة، فجمعوا بذلك جلّ العناصر النظرية السياقية التي ينادي بها المحدثون .[4]

وهذا ما أكده طاهر حمودة من أن الأصوليين قد أدركوا عناصر السياق المختلفة بشقيها اللفظي و الاجتماعي، وضرورة الاستعانة بها في الكشف عن المعنى، وتحديده، وهو ما تبعوه في دراستهم. وهم بذلك يتفقون . من حيث الجوهر . مع نظرية السياق الحديثة ، التي جاء بها فيرث، وإن لم يلتزم الأصوليون في عملهم بما تفرضه النظرية من

---

[1] - طاهر سليمان حمودة ، دراسة المعنى عند الأصوليين، ص230.

[2] - الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ،ص 293.

[3] – ينظر: م ن ، ص 231–232.

[4] – عبد النعيم خليل ، نظرية السياق بين القدماء المحدثين ، ص 257.

المراحل التحليل على المستويات اللغوية، فينبغي أن نتذكر وصف أو لمان للمنهج الذي تطرحه النظرية ، بأنه طموح إلى درجة لا نستطيع معها في كثير من الأحيان إلاّ تحقيق جانب واحد منه فقط .[1]

كما يقول في موضع آخر أنه يبدو واضحا في الدرس الأصولي بعامة إدراكهم للسّياق بشقيه اللغوي والاجتماعي، واعتمادهم عليه في الفهم و الاستنباط ، وتصورهم الدقيق لعناصره المختلفة التي تشمل الموقف الكلامي بأسره، و هم في ذلك يتفقون –في الجوهر – مع نظرية السياق الحديثة ،بل إن فريقا من الأصوليين يكادون يشبهون السياقيين المحدثين.[2]

ثانيا: السياق في الفكر اللغوي العربي الحديث و المعاصر :

إذا كان من الصّعب تحديد البدايات الأولى لانتقال الفكر اللغوي الحديث في الغرب،إلى ميدان التفكير اللغوي في مصر و العالم العربي، فإنه من اليسير أن نعرف أن نظرية السياق كانت أثرا من آثار التفاعل الفكري بين الشرق و الغرب ، حيث عرفت هذه النظرية طريقها إلى الدراسات اللغوية في هذا العصر، على يد ثلاثة من الرواد اللغويين العرب ، أرسلوا في بعثات عملية إلى الغرب للحصول على درجة الدكتوراه ، هؤلاء الرواد هم : **محمود السّعران، أحمد مختار عمر، (ت2011م) تمام حسان** ، بالإضافة إلى :**حلمي خليل ، كمال محمد بشر، طاهر سليمان حمودة.**

وقد تتلمذ (تمّام حسان وكمال محمد بشر ومحمد السّعران) على يد فيرث (وهو أستاذ اِنجليزي كان رئيسا لقسم اللغة في جامعة لندن، مابين عامي (1944و1956 م) تتلمذ على يده مجموعة من اللّغويين العرب ، اضطلعوا بنقل الفكر اللغوي الغربي إلى العالم العربي، توفى عام 1960م)[3]، مؤصل نظرية السياق، وكان من الطبيعي أن نجد خيوط هذه النظرية عند هؤلاء منبثة في كثير من أعمالهم العلمية على

[1] – طاهر سليمان حمودة ،دراسة المعنى عند الأصوليين، ص 233.

[2]– م ن، ص 237.

[3] – عبد النعيم خليل، نظرية السياق بين القدماء و المحدثين، ص311.

اختلاف اتجاهاتهم اللغوية بالرغم من أنهم ينتمون إلى مدرسة لغوية واحدة هي مدرسة لندن التي تغلب عليها الناحية العلمية في دراسة اللغة.

فقد تناول **محمود السّعران** هذه النظرية بشيء من الإيجاز في كتابه « **علم اللغة مقدمة للقارئ العربي.**»، في أثناء عرضه لنظريات اللغويين في علم الدلالة، حيث تحدث عن نظرية المدرسة الاجتماعية السويسرية الفرنسية أعقبها بالحديث عن المدرسة السلوكية الأمريكية ثم المدرسة الاجتماعية الإنجليزية التي يمثلها (فيرث)، وكان في تناوله لهذه النظرية ناقلا لآراء أستاذه فيرث في المعنى، حيث رأى السعران أن مدرسة فيرث تنظر إلى المعنى على أنه صورة مركّبة من مجموعة من الوظائف اللغوية، الصوتية و الفونولوجية و المورفولوجية و النحوّية و المعجمية بالإضافة إلى السياق الاجتماعي للحدث اللغوي.

يقول محمود السعران:« وهكذا فالأستاذ فيرث يرى أن الوصول إلى معنى أي نص لغوي يستلزم:

1- أن يُحلل النصّ اللغوي على المستويات اللغوية المختلفة الصوتية و الفونولوجية و المورفولوجية و المعجمية.

2- أن يبين نوع الوظيفة الكلامية، (إغراء، لوم...)

3- أن يبين سياق الحال (شخصية المتكلم،شخصية السامع، وجميع الظروف المحيطة بالكلام...)

4- وأخيرا يذكر الأثر الذي يتركه الكلام(ضحك، تصديق، سخرية...)[1]

ثم يتناول بالحديث المقصود بسياق الحال أو المقام، فهو يعني عنده مجموعة من العناصر المكوّنة للحال الكلامية، هذه العناصر هي:

1- شخصية المتكلم و السامع وتكوينهما الثقافي، وشخصيات من يشهد الكلام غير المتكلم و السامع وبيان ما لذلك من علاقة بالسلوك اللغوي.

[1] – محمود السعران، علم اللغة، (مقدمة للقارئ العربي)، ص310.

2- العوامل والظواهر الاجتماعية ذات العلاقة باللغة وبالسلوك اللغوي لمن يشارك في الموقف الكلامي أو كان لها دخل وكالوضع السياسي ومكان الكلام ... وكل ما يطرأ أثناء الكلام ممن يشهد الموقف الكلامي من انفعال أو اِضطراب و كل ما يتعلق بالموقف الكلامي أيا ما كانت درجة تعلقه .[1]

3- أثر النص الكلامي في المشتركين كالإقناع أو الألم أو الإغراء أو الضحك.[2]

ولم يزد محمود السعران على ذلك سوى أنه أشار إلى استعمال مالينوفسكي لمصطلح سياق الحال، وتطور هذا المصطلح عند فيرث، فهو عنده– فيرث – نوع من التجرد من البيئة أو الوسط الذي يقع فيه الكلام وهذا التجريد يقوم به اللغويون للوفاء بدراستهم»،وعلى هذا فإننا نستطيع أن نستخلص ما يأتي:

1- أن محمود السعران قد تناول هذه النظرية من الجانب النظري التاريخي، لا من الوجهة التطبيقية كما فعل تمام حسّان، إلا ما جاء في عرضه لبعض المفردات اللغوية التي يحتاج للوقوف على معناها الدلالي إلى سياق الحال، وقد مثل لهذه المفردات اللغوية من القرآن الكريم ومن الشعر الجاهلي، وأمثال العرب و الشعر الصوفي.[3]

2- أن محمود السعران قد اكتفى في التعريف بهذه النظرية على وجه التفصيل بهذه المراجع التي أحال إليها في هامش ص(337) من كتابه السابق، و التي يدور موضوعها حول مفهوم السياق عند فيرث.

3- لم يزد السّعران عمّا ردّه فيرث حول عناصر هذه النظرية، و دورها في الكشف عن المعنى الدلالي.[4]

---

[1]– محمود السعران، علم اللغة، (مقدمة للقارئ العربي)، ص349.

[2] – م ن، ص339.

[3] – عبد النعيم خليل، نظرية السياق بين القدماء و المحدثين،ص324.

[4]– عبد النعيم خليل ، نظرية السياق بين القدماء والمحدثين، ص324.

و إذا انتقلنا إلى **أحمد مختار عمر** فقد عقد فصلا في كتابه" علم الدلالة" بعنوان: " **نظرية السياق"** غير أنه لم يزد عن التمثيل لبعض من أنواع السياق اللغوي و العاطفي وسياق الحال والسياق الثقافي.[1]

أما تمام حسان فقد تعّرض لهذه النظرية في عملين له: أولهما " **مناهج البحث في اللغة** " (1955)، وثانيهما " **اللغة العربية معناها ومبناها"**،(1973) وسوف نحاول في هذه الصفحات إبراز الجوانب السّياقية في هذين الكتابين بشيء من الإيجاز، إذ ليس هدفنا أن نعرض هذين الكتابين أو نعرّف بهما، وإنما هدفنا أن نعرف كيف تعامل هؤلاء الرواد مع هذه النظرية اللغوية ومدى تأثرهم بها وتفاعلهم معها.

قسّم تمام حسّان الدرس اللغوي في كتابه " **مناهج البحث في اللغة** "إلى ستة مستويات هي[2]:

1- منهج الأصوات (phonitics).
2- منهج التشكيل الصوتي(phonology)
3- منهج الصرفMorphologie))
4- منهج النحو (Syntaxe)
5- منهج المعجم (Lexion)
6- منهج الدلالة (Sémantique)

ولقد تركزت عناصر هذه النظرية بصفة خاصة على تناوله لمنهجي النحو و الدلالة، حيث يطالعنا في بداية دراسته لمنهج النحو برأي خاص في تعريفه لهذا العلم، فهو عنده عبارة عن دراسة العلاقات بين الأبواب النحوية، ممثلة في الكلمات على مستوى الجملة أو العبارة، بمعنى أني إذا عمدت إلى إعراب جملة " ضَرَبَ مُحَمَدُ عَلِيَاً، فإني أنسب ضرب إلى باب الفعل المبني على الفتح، ومحمد إلى باب الفاعل و عليا إلى باب

[1] – أحمد مختار عمر، علم الدلالة،ص68.
[2] - تمام حسان ، مناهج البحث في اللغة ،ص، 197.

المفعول، فهذه الجملة على هذا النمط، تمثل العلاقات المتبادلة بين هذه الأبواب الثلاثة، هي فكرة مقبولة في حد ذاتها ،غير أنه يربط ربطا وثيقا بين الإعراب و المعنى الوظيفي ويقصد بالمعنى الوظيفي ، الوظيفة التي تشغلها الكلمة في الجملة، بمعنى أن كلمة " محمد" في الجملة السابقة تشغل وظيفة الفاعلية و "عليا المفعولية وهكذا ، هذا المعنى الوظيفي، تقتبسه الكلمة من خلال صيغتها، وو ضعها بعيدا عن مفهومها اللغوي، وهو بهذا يجرد المعنى اللغوي وبالأحرى المعنى القاموسي من قيمته الإعرابية، لكن هذا ليس صحيحا في كثير من الأحيان فهناك الكثير من الكلمات لا نستطيع إعرابها، ما لم نقف على معناها اللغوي، وهذا ما عبر عنه أحد النحاة حيث سئل عن إعراب كلمة "**كلالة**" في قوله تعالى:(وإن كان رجل يورث كلالة أو إمرأه)[1]

حين قال أخبروني ما الكلالة؟ فقالوا له: الورثة، إذا لم يكن فيهم أب فما علا، ولا ابن فما سفل فقال: هي إذن تمييز.[2]

ثم عرج تمام حسان إلى الحديث عن أقسام الكلمة من منطق سياقي حيث يرى أن تقسيم الكلام يجب أن يقوم على الأسس الآتية:

1- الشكل الإملائي المكتوب.
2- التوزيع الصرفي.
3- الأسس السياقية.
4- المعنى الأعم و معنى الوظيفة .
5- الوظيفة الاجتماعية.

ويبدو تأثره في ذلك بالنظرية السياقية، فالأساسان الثالث و الرابع من هذه الأسس يرتبطان بالسياق اللغوي ، حيث يقصد بهما ارتباط الكلمة بما قبلها و بما بعدها على مستوى التركيب، ومن خلال هذه الأسس السّياقية يمكن أن يظهر التصنيف الصرفي للكلمة

[1] - سورة النساء، 12

[2] – ينظر، حلمي خليل، العربية و الغموض، دراسة لغوية في دلالة المبنى على المعنى، دار المعرفة الجامعية، ط1، 1988، ص216 وما بعدها.

يقول:« **ولا نستطيع إلاّ على أساس سياقي أن نفرق بين " هم" باعتبارها ضميراً منفصلا وبين" ها" باعتبارها ضميرا متصلا لأنها بشكلها الإملائي قد تدل على اتصال أو انفصال بدليل المقارنة في الأمثلة التالية:**

هم يحضرون يحضرهم

هم يجدون يجدهم

فالشكل الإملائي هنا لا يجدى في التفريق بين الضميرين و إنما يحتاج في التفريق إلى السياق، والسياق هو المكان الطبيعي لبيان المعاني الوظيفية للكلمات، فإذا اتضحت وظيفة الكلمة فقد اتضح مكانها في هيكل الأقسام التي تنقسم الكلمات إليها».[1]

أما الأساس الخامس فإنه ينتمي إلى ما يسمى بسياق الحال أو السياق الاجتماعي، حيث ترتبط هذه الوظيفة بالمجتمع وما يفرضه من دلالات خاصة.

يقول تمام حسان: « يلاحظ أن لبعض الكلمات دلالات اجتماعية خاصة لأنها تدخل في تحديد العلاقات التي يبنى عليها المجتمع و الكلمات الآتية من هذا النوع: أب– أم– مولود– رئيس– مرؤوس– قائد– موظف– صديق– مدرس– طالب– أقارب– أعداء– زملاء. »[2]

ومنها أيضا: أنا– أنت– هو– نحن– أنتم– هم– هذا– هذه– هؤلاء– أولئك – وهلم جرا.

ويلاحظ أن الدلالة الاجتماعية للطائفة الأولى من الكلمات تختلف عنها في الطائفة الثانية وهي الضمائر ذلك لأن كلمات الطائفة الأولى ذات دلالتين إحداهما مطابقة و الأخرى التزامية.[3]

ويخلص من ذلك إلى تقسيم الكلام إلى أربعة أقسام: **الاسم – الفعل – الضمير– الأداة** طبقا للوظيفة الاجتماعية التي تفرّق بين الاسم و الضمير، ثم تناول الدكتور تمام حسان السياق اللغوي بمفهومه عند السياقيين، تحت عنوان" **وسائل الترابط في السياق"**

---

[1] – تمام حسان ، منهاج البحث في اللغة ، ص 199.

[2] – م ن ، ص200.

[3]– تمام حسان ، منهاج البحث في اللغة ، ص201.

وقسم هذه الوسائل إلى ثلاثة أقسام:[1]

1- وسائل التماسك السياقي

2- وسائل التوافق السياقي

3- وسائل التأثير السياقي

وقد رأى أن التماسك السياقي يقتضي توافقا بين أجزاء معينة في السياق في بعض النواحي الآتية أو كلها:

أ) **المتكلم و الحضور و الغيبة (الشخص)**

ب) **الأفراد و التثنية و الجمع (العدد)**

ت) **التذكير و التأنيث (النوع)**[2]

وهذا ما قصده إليه عبد القادر الجرجاني، حين قال:« واعلم انك إذا رجعت إلى نفسك علمت علما لا يعترضه الشك، أنّ لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلّق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض ، وتجعل هذه بسبب من تلك، هذا ما لا يجهله عاقل ولا يخفى على أحد من الناسّ وإذا كان كذلك فبنا أن ننظر إلى التعليق فيها و البناء. وجعل الواحدة منها بسبب من صاحبتها، ما معناه وما محصوله، وإذا نظرنا في ذلك علمنا أن لا محصول لها غير أن تعمد إلى اسم فتجعله فاعلا لفعل أو مفعول أو تعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبرا عن الآخر أو تتبع الاسم اسما على أن يكون الثاني صفة للأول أو تأكيدا أو بدلا منه أو تجيء باسم بعد تمام كلامك على أن يكون الثاني صفة أو حالا أو تميزا»[3] . وهو نفسه ما قصده قدامى النحويين، حين قالوا إن النّعت الحقيقي يتبع منعوته في أربعة من عشر و يقصدون بالعشرة العدد (الإفراد والتثنية و الجمع) الإعراب(الرفع و النصب و الجر) و النوع (التذكير والتأنيث) والتعريف التنكير،[4] و

---

[1] - م ن ،ص203.

[2] – م ن ، ص 205.

[3] – عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص44.

[4] – عبده الراجحي، التطبيق النحوي، دار النهضة العربية، (د ط)، 1988،ص381.

قد بنوا هذه الحقيقة على أساس من السياق اللغوي للعبارة النعتية. ثم يأتي تمام حسان بما أسماه مظاهر التماسك السياقي استكمالا للجانب التطبيقي في السياق اللغوي حيث يرى أن التماسك السياقي يبنى على العلاقات المتشابكة بين أجزاء السياق؛ أي بين الأبواب النحوية.

أما التوافق السياقي فإنه يتضح في جهات ثلاث، أولاها النوع (التذكير و التأنيث) وثانيها العدد (الإفراد والتثنية و الجمع) وثالثها الشخص (المتكلم و الحضور و الغيبة .[1]

وقد انتهج تمام حسّان المنهج التطبيقي نفسه لهذا العنصر من عناصر النظرية السياقية في كتابه "**اللغة العربية معناها و مبناها** " ، حيث نظر إلى الدراسات اللغوية العربية من خلال قضية المعنى، كما يتمثل عند أصحاب النظرية السّياقية، فالمعنى عنده ينقسم إلى قسمين:

المعنى المقالي : والمقصود به السياق اللغوي عند فيرث و المعنى هو الذي يقوم أساسا على فكرة المقام أوسياق الحال (contexte of situation)، كما وردت في النظرية السياقية .

والمعنى المقالي عنده يقوم على شبكة من العلاقات السياقية التي تتمثل في مجموعة القرائن اللفظية و المعنوية ، والتي تقترن أولا وأخيرا بالسّياق، أو ما أطلق عليه المبنى.

أما القرائن المعنوية في السياق اللغوي أو المبنى، فهي عنده : قرينة الإسناد وقرينة التخصيص و قرينة المخالفة، مثل المنصوبات التي يتغير المعنى بتغيرها إلى المرفوعات و قرينة النسبة وهي معاني حروف الجر التي تنسب بها معاني الأفعال إلى الأسماء وقرينة التبعية مثل النعت والتوكيد والعطف و البدل،[2] تلك هي القرائن المعنوية في

[1] – تمام حسان، مناهج البحث في اللغة ، ص 215.

[2] – عبد النعيم خليل، نظرية السياق بين القدماء و المحدثين،ص317.

السياق اللغوي ، أما القرائن اللفظية فهي : العلامة الإعرابية ، الرتبة مبنى الصيغة ، المطابقة ، الربط ، التضام ، الأداة ، النغمة .

أما سياق الحال أو المقام (contexte of situation) فقد بدا واضحا في المنهج الدلالي عنده ، وهو في كتابه " **مناهج البحث في اللغة** كان مؤرخا أكثر منه مطبقا لهذا العنصر الهام من عناصر السياق، حيث استعرض هذا المنهج وجهة نظر بعض العلماء في المعنى الدلالي ، وخصّ بالذكر نظرية ديسوسيير وعرض لكلّ من الدراسة السيكرونية والدياكرونية وهو ما فعله فيرث في كتابه (papers in linguistix).[1]

ثم قدم عرضا نظريا لما قصده فيرث بمصطلح سياق الحال أو المقام (Context of situation) بما يكاد يكون ترجمة خالصة لبعض الصفحات في كتاب فيرث السابق.[2]

وانتهى تمام حسان من هذا العرض بقوله: « إن هذه النظرية التي جاء بها فيرث تحليلات أمبريكالية عملية لا نظرية للمعنى ويمكن وصفها بأنها نسق من الماجريات كل ماجرى منها داخل العملية اللغوية ، ولكل ماجرى منها وظيفة الماجرى الذي يشتمل عنه، و لا يزال يشتمل كل من هذه الماجريات على الآخر حتى يحتويها جميعا ماجريات الثقافة التنشيئية ، فالمعنى في رأي فيرث كل مركب من وظائف لغوية هي وظائف الصيغة، و العناصر الهامة في هذا الكل المركب هي الوظيفة الأصواتية (الصغرى) ثم الوظائف الكبرى المعجمية و الصرفية و النحوية وظيفة الماجريات الدلالة بصفة عامة».[3]

ولقد ظهرت عناصر هذه النظرية أيضا عند تمام في كتابه **"اللغة العربية معناها ومبناها**" حيث يقوم الكتاب على دعامتين هما:

1- الدراسات اللغوية العربية، كما تتمثل في كتب النحو والصرف والبلاغة.

---

[1] – Firth : papers in linguistix oxford university prex p13-17

[2] – ينظر: تمام حسان، مناهج البحث في اللغة العربية، من ص 285 إلى ص 300

[3] – ينظر: تمام حسان، مناهج البحث في اللغة العربية ص 289، العودة إلى اللغة العربية معناها ومبناها، ص303.

2- النظر إلى هذه الدراسات من خلال قضية المعنى، كما تتمثل أساسا في نظرية السياق عند فيرث.[1]

أما النظام النحوي في هذا الكتاب فهو يتصل بوضع و تركيب الكلمات داخل وحدة لغوية أكبر تسمى الجملة في النحو التقليدي وهو ما يتصل اتصالا وثيقا بمفهوم السياق بمعناه اللغوي، هذا السياق في هذا النظام يقوم على فكرة العلاقات السياقية بين الكلمات على مستوى التركيب، وهذه العلاقات تتمثل في مجموعتين من القرائن يستقيم على أثرها المبنى الكلامي هاتان المجموعتان هما:

أ- **قرينة الإسناد:** وتمثلها علاقة التعدية في المفعول به، و المعية في المفعول ، والظرفية وقرنية المخالفة المنصوبات التي يتغير المعنى برفعها وقرينة النسبة وتمثلها معاني الحروف التي تنسب بها معاني الأفعال إلى الأسماء وهي حروف الجر.

مجموعة من القرائن اللفظية و هي :

1-العلامة الإعرابية 2- الرتبة 3- مبنى الصيغة 4- المطابقة

5-الربط 6- التضام 7- الأداة 8- النغمة[2]

تؤدي هذه القرائن كلها عندما تتضافر تؤدي المعنى المقالي المأخوذ من السياق اللغوي، وهذا المعنى وحده لا يكفي للكشف عن المعنى الدلالي ، إذ يعتمد هذا بالإضافة إلى المعنى المقالي على الوجه الاجتماعي من وجوه المعنى، و من هنا يتطرق تمام حسان إلى المقام و سياق الحال contexte of situation ، حيث استشعر أهميته في الكشف عن المعنى الدلالي، يقول : « وفكرة المقام هذه المركز الذي يدور حوله علم الدلالة الوصفية في الوقت الحاضر و هو الأساس الذي ينبني عليه الشق أو الوجه

---

[1] – حلمي خليل، العربية وعلم اللغة البنيوية، دراسة في الفكر اللغوي العربي الحديث، دار المعرفة الجامعية، (د ط)،1988،ص226.

[2] – ينظر تمام حسان ، اللغة العربية معناها و مبناها ص 191.

الاجتماعي من وجوه المعنى الثلاثية و هو الوجه الذي تتمثل فيه العلاقات و الأحداث و الظروف الاجتماعية التي تسود ساعة أداء المقال»[1]

و يوضح تمام حسان دور المقام أو السياق الاجتماعي في الكشف عن المعنى الدلالي بأمثلة تطبيقية فيقول: « وهذا العنصر الاجتماعي ضروري جدا لفهم المعنى الدلالي فالذي يقول لفرسه عندما يراها "أهلا بالجميلة" يختلف المقام معه عن الذي يقول هذه العبارة لزوجته فمقام توجيه هذه العبارة للفرس هو مقام الترويض، أما بالنسبة للزوجة فالمعنى يختلف بحسب المقام الاجتماعي أيضا، فقد تقال هذه العبارة في مقام الغزل أو في مقام التوبيخ فالوقوف هنا عند مقام المعنى المعجمي "أهلا و بالجميلة" و على المعنى الوظيفي لهما و للباء الرابطة بينهما لا يصل بنا إلى المعنى الدلالي و لا يكون وصولنا إلى هذا المعنى الدلالي إلا بالكشف عن المقام الذي قيل فيه النص»[2] .

والمقام في نظر تمام حسان يقوم أساسا على العناصرنفسها التي نص عليها فيرث في كتابه السابق، إذ هو عبارة عن: " **مجموع الأشخاص المشاركين في المقال إيجابا وسلبا ثم العلاقات الاجتماعية والظروف المختلفة في نطاق الزمان والمكان**"[3] .

فهو بذلك يضم المتكلم و السامع أو السامعين والظروف والعلاقات الاجتماعية والأحداث الواردة في الماضي والحاضر، ثم التراث والفلكلور والعادات والتقاليد والمعتقدات. ولولا هذا المقام وما يقدمه العنصر الاجتماعي من قرائن حالية حين يكون المقال موضوعا للفهم لأصبح الناس يعتبرون الأحجية والسحر وهي مما يشتمل على كلمات لا تفهم ضربا من ضروب الهراء، أو لما أعطوه ما يعطونه من تقبل وتسامح على الأقل[4].

ثم يختم تمام حسان حديثه عن هذا المنهج بقوله: « هذا هو الاتجاه الصحيح والضروري في الكشف عن المعنى، وهذه هي الاعتبارات المختلفة التي ينبغي أن تراعى

---

[1]– م ن ، ص 337.

[2] – م ن، ص 342.

[3] – م ن، ص 351.

[4] – تمام حسان ، اللغة العربية معناها و مبناها ، ص 352.

في تشقيق المعنى، وإن تطبيق هذا المنهج في الكشف عن المعنى ينبغي أن يصدق على النصوص المنطوقة ذات المقام الحاضر الحي، كما ينبغي أن يصدق على النصوص المكتوبة ذات المقام المنقضى والذي يمكن أن يعاد بناؤه بالوصف التاريخي»[1] .

انطلاقا من هذا النص يتضح لنا منهج تمام حسان في الكشف عن المعنى الذي ينبغي أن يطبق على النصوص المنطوقة ذات المقام الحي، وعلى النصوص المكتوبة كذلك، والتي يمكن أن يعاد بناؤها انطلاقا من تطورها عبر التاريخ.

أما ما جاء بعد هؤلاء من اللغويين فلم يزيدوا عما قالوه صدد هذه النظرية، حيث اِنهم تعرضوا لمصطلح سياق الحال في أبسط صوره وقليل منهم الذي تناول السياق اللغوي بالتعريف، اللهم إلا ما كان من **حلمي خليل** في كتابه " **العربية وعلم اللغة البنيوي(1988)** " ، فقد تحدث عن هذه النظرية في غير موضع أثناء حديثه عن مدرسة فيرث في الفصل الخاص بالبنيوية الوصفية،[2] فقد تعرض لمفهوم السياق بالتحليل والتطبيق، وانتهى إلى أن السياق عند فيرث ينقسم إلى نوعين :

أ–السياق اللغوي (context linguistic) : ويتمثل في العلاقات الصوتية والفونولوجية والمورفولوجية والنحوية الدلالية. ب–سياق الحال (context of situation) : ويمثله العالم الخارج عن اللغة بما له من صلة بالحدث اللغوي، ويتمثل في الظروف الاجتماعية والبيئة النفسية والثقافية للمتكلمين أو المشتركين في الكلام[3] .

كما تناول حلمي خليل نظرية السياق في الفصل الخاص بالعربية والبنيوية الوصفية، وذلك حين تعرض بالنقد والتحليل لبعض من مؤلفات اللغويين المعاصرين بين فيها تأثر هؤلاء بنظرية السياق عند فيرث.

---

[1] – م ن ، ص 372.

[2] – حلمي خليل، العربية وعلم اللغة البنيوي ، ص131.

[3] – م ن ، ص136.

و إذا انتقلنا إلى كمال محمد بشر فإننا نراه قد تناول هذه النظرية في ثلاثة مواضع من كتابه **دراسات في علم اللغة (1969)** .

أما الموضع الأول فكان في أثناء تعرضه لنقد التراث العربي ودراسته، حيث لاحظ أن علماء العربية وقعوا في أخطاء منهجية لا يقرّ بها البحث الحديث، وقد حصر هذه الأخطاء في أمرين هما :

أ–عدم التكامل أو فقدان وحدة المنهج، وهو يعزو ذلك لسبب هام ذلك أن العلماء العرب لم يدركوا تماما وضوح العلاقة بين فروع علم اللغة، يقول محمد بشر: « يبدو أن بعض علماء العربية لم يدركوا تمام الإدراك مدى العلاقة والارتباط بين فروع الدراسات اللغوية أو مسائل اللغة المختلفة في عمومها ومن ثم نراهم ينظرون إلى هذه الفروع أو المسائل كما لو كانت منفصلة بعضها عن بعض لا يضمها إطار عام مشترك يوحي بوحدتها وانتظامها جميعا تحت موضوع رئيسي واحد »[1] .

و قد انتهى محمد بشر إلى أن هناك أساليب عدة في الدراسات اللغوية عند العرب، فقد كان أسلوب الافتراض والتأويل هو الغالب في كثير من مسائل الصرف العربي، وكان حظ الأصوات أن نالت طريقة ما يسمى الآن بالملاحظة الذاتية، ونعني بها استخلاص الحقائق وتصنيفها و وضع القواعد الخاصة بها، عن طريق التجربة الشخصية أو الانطباع الذهني الناتج عن هذه التجربة[2].

أما النحو فقد اتصف منهجه بأساليب مختلفة أهمها :

1–الاتجاهات الفلسفية والمنطقية وذلك واضح في مشكلة العامل، وما تفرع عنها من قضايا فرعية لا حصر لها.

2–التأويل والافتراض ويظهر بوجه خاص في محاولة تفسير علل البناء والإعراب وفي توجيهات الإعراب.

---

[1] – كمال محمد بشر، دراسات في علم اللغة، دار المعارف، ط2، 1981، ص23.

[2] – م ن ، ص 53.

3-المعيارية وهي مبنية على أساس فكرة تقليدية مشهورة تمثلها العبارة الآتية: " **اللغة هي ما يجب أن يتكلمه الناس وليس ما يتكلمه الناس بالفعل** ".

4-الاتجاه الوصفي، وهو المنهج الذي يضع نصب عينه تسجيل الواقع اللغوي كما هو دون التدخل فيما يجب أن يكون وهو منهج البحث العلمي الموضوعي، غير أن تناول العرب لبعض المسائل بمنظور وصفي كان – كما يقول محمد بشر : « وصفا مسوقا بصورة عفوية و مطبقا بصورة جزئية لا تسمح بالقول بأن المنهج المتبع في دراسة النحو العربي منهج وصفي »[1].

ب-إهمال عامل الزمن، وذلك حين درس العرب لغتهم في فترة زمنية محددة، فلم ينظروا فيها قبل هذه الفترة أو بعدها نظرة علمية ولم يحاولوا الاستفادة من ماضي اللغة، أو النظر فيها على فترات التاريخ المتعاقبة[2].

تلك هي الأخطاء المنهجية التي أخذها محمد بشر على علماء العرب.

كذلك أفرد طاهر سليمان حمودة فصلا بعنوان " نظرية السياق " في كتابه " دراسة المعنى عند الأصوليين " تناول فيه التعريف بهذه النظرية باختصار شديد، حيث ارتضى السياقية منهجا لدراسة المعنى، يقول : « تعد نظرية السياق على النحو الذي حدده فيرث – firth – في نظرنا من أفضل المناهج لدراسة المعنى بسبب ما تميزت به من عناية بالعناصر اللغوية والاجتماعية والابتعاد عن كثير من الأفكار البعيدة عن الواقع اللغوي أو بسبب المنهج الواضح الذي طرحته لدراسة النصوص »[3].

كما أشار إلى أن استصحاب سياق الحال ضروري لدراسة النصوص اللغوية المكتوبة التي فقدت عنصرا هاما من عناصر السياق، يتمثل في الأداء الصوتي، وعلى قدر ما يمكننا استحضاره من عناصره يكون فهمنا للمعنى، من حيث الدقة والوضوح[4]

---

[1] – م ن، القسم الثاني، ص56.

[2] – كمال محمد بشر ، دراسات في علم اللغة ، ص 57.

[3] – طاهر سليمان حمودة، دراسة المعنى عند الأصوليين، ص 213.

[4] – م ن، ص 218.

حيث يتوقف الفهم الدقيق للكثير من النصوص بسبب قطعها عن السياق الحالي أو غياب بعض عناصره، وقد ضرب مثلا لذلك بقول الكميت:

طَرِبْتُ وَ مَا شَوْقًا إلى البيض أَطْرَبُ * وَ لاَ لَعِبًا مْنِّي وَذُو الشَّيْبِ يَلْعَبُ** [1]

يذكر النحاة أن قوله:(وَ ذُو الشَّيْبِ يَلْعَبُ) يحتمل أن يكون استفهاما إنكاريا بهمزة استفهام محذوفة، ويحتمل أن يكون إخبارا، والمعنى مختلف في الحالتين، وما كان هذا الاحتمال ليرد في اللغة المنطوقة التي تتمثل فيها للسامع عناصر الموقف الكلامي، حيث يسمع طريقة الأداء الصوتي وما يصاحبها من المتكلم من حركات أو إشارات أو نحو ذلك، فيميز بين الإخبار والاستفهام[2].

كما تناول مفهوم السياق عند كل من البلاغيين والأصوليين والمفسرين، وخلص في النهاية إلى حقيقة مردها أن هؤلاء العلماء جميعا أدركوا هذا المفهوم كل في مجال بحثه، وبطريقته الخاصة.

ثالثا : السياق في الفكر اللغوي الغربي :

حظي السياق في الدراسات اللغوية الحديثة بعناية واسعة، وارتبط بجهود كثير من العلماء العرب و الغرب، ويعد العالم الإنجليزي (فيرث –Firth) في مقدمتهم واضعا المنهج السياقي الذي ينبغي الالتزام به في دراسة اللغة واستوى جهده نظرية عرفت بالنظرية السياقية المعنى[3].

و قد سبقت نظريته بمحاولة الأنثروبولوجي (مالينوفسكي–malinofasqi)، وكلاهما قد حدد المعنى بموجب السياق الذي يستعمل فيه[4].

استعمل مالينوفسكي مصطلح سياق الحال (context of situation)، ويعني هذا المصطلح في المقام الأول : الموقف الفعلي الذي حدث فيه الكلام، ولكنه يقود إلى نظرة

---

[1] – البيت من البحر الطويل .

[2] – طاهر سليمان حمودة، دراسة المعنى عند الأصوليين، ص

[3] – أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص 68.

[4] – م ن ، ص 61.

أوسع، تضم الخلفية الثقافية التي وضع الحدث الكلامي بإزائها[1]،أي أن معنى الجملة يتحدد في السياق المعين الذي ترد فيه، والسياق الذي قصده مالينوفسكي هو البيئة الطبيعية أو الواقع الثقافي للمجتمع، ثم تطور باستعمال (فيرث – Firth) له في دراسته اللغوية[2]، وقد نظر (فيرث – firth): " إلى المعنى على أنه نتيجة علاقات متشابكة متداخلة، فهو ليس وليد لحظة معينة بما يصاحبها من صوت وصورة، ولكنه أيضا حصيلة المواقف الحية التي يمارسها الأشخاص في المجتمع، فالجمل تكتسب دلالتها في النهاية من خلال ملابسات الأحداث أي من خلال سياق الحال ورأى وجوب اعتماد كل تحليل لغوي على ما يسميه بالمقام "[3]، و اقترح أن تدرس اللغة كأداة في المجتمع، يستعملها الأفراد بقصد تحقيق أهداف وأغراض معينة[4]، وقد صرح فيرث : " بأن المعنى لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية، أي وضعها في سياقات مختلفة"[5].

و قد أكد فيرث على : " التوازي بين السياقات الداخلية والشكلية ... وبين السياقات الخارجية للموقف "، وعلى هذا تقتضي دراسة معاني الكلمات تحليلا للسياقات والمواقف التي ترد فيها سواء أكانت لغوية أم غير لغوية[6].

و يرى جون لاينز أن السياق مرتبط بالنص، وكل منهما مكمل للآخر: " إذ تعتبر النصوص مكونات للسياقات التي تظهر فيها، أما السياقات فيتم تكوينها وتحويلها وتعيلها بشكل دائم بواسطة النصوص التي يستخدمها المتحدثون والكتاب في مواقف معينة "[7] فالسياق يحدد معنى الوحدة الكلامية في الخطاب، ونوعها، وكيفية التعبير عنها[8]، فالنص

---

[1] – علية عزت عياد، معجم المصطلحات اللغوية والأدبية دار المريخ للنشر،(د ط)، س ط، 1984، ص 56.

[2] – محمود السعران، علم اللغة، ص 310.

[3] – يحيى أحمد، الاتجاه الوظيفي ودوره في تحليل اللغة، مجلة عالم الفكر، بيروت، المجلد2، العدد3، 1981، ص 82.

[4] – ينظر م ن، ص 82.

[5] – أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص 68.

[6] – م ن، ص 69.

[7] – جون لاينز، اللغة والمعنى والسياق، ص 215.

[8] – م ن، ص 222.

فالنص يمكن أن يؤدي عدة معان بحسب السياق الذي ينطق فيه، فقد يقارن بالصمت أو هز الرأس أو الابتسامة أو النظرة إلى غيرها من الأوضاع.

و ناقش (ستيفن أولمان) السياق وحدد مفهومه تحديدا واضحا وشاملا، إذ أشار إلى : "أنه (السياق) ينبغي أن يشمل لا الكلمات والجمل الحقيقية (للفظ المعني) فحسب بل والقطعة كلها والكتاب كله كما ينبغي أن يشمل بوجه من الوجوه كل ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات والعناصر غير اللغوية المتعلقة بالمقام الذي تنطق فيه الكلمة لها هي الأخرى أهميتها البالغة في هذا الشأن "[1]، فهذه العوامل لها تأثيرها المباشر على المعنى الواضح للكلمات، ولو طبق مبدأ السياق لابتعدنا عن الأخطاء المتعلقة بالاقتباسات والتفسيرات والترجمات، يقول أولمان و هو يناقش موضوع السياق بأن: « نظرية السياق إذا طبقت بحكمة تمثل حجر الأساس في علم المعنى، وقد قادت بالفعل إلى الحصول على مجموعة من النتائج الباهرة في هذا الشأن. إنها – مثلا – قد أحدثت ثورة في طرق التحليل الأدبي، ومكنت الدراسة التاريخية للمعنى من الاستناد إلى أسس حديثة أكثر ثباتا ... وفوق هذا كله قد وضعت لنا نظرية السياق مقاييس لشرح الكلمات وتوضيحها عن طريق التمسك بما سماه الأستاذ (فيرث) (ترتيب الحقائق في سلسلة من السياقات: أي سياقات، كل واحد منها ينضوي تحت سيق آخر، ولكل واحد منها وظيفة بنفسه، وهو عضو في سياق أكبر، وفي كل السياقات الأخرى، وله مكانه الخاص فيما يمكن أن نسميه سياق الثقافة)، والحق أن هذا المنهج طموح إلى درجة لا نستطيع معها في كثير من الأحايين إلا تحقيق جانب واحد منه فقط، ولكنه مع ذلك يمدنا بمعايير تمكننا من الحكم على النتائج الحقيقية حكما صحيحا »[2]، فالسياق وحده هو الذي يساعدنا يساعدنا على إدراك المتبادل بين المعاني الموضوعية والمعاني العاطفية والانفعالية[3].

---

[1] – ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ص 60.

[2] – م ن ، ص 66– 67.

[3] – م ن، ص 52.

وأشار دي سوسيير إلى أن: « السياق ... يتركب دائما من وحدتين متتاليتين فأكثر ... والكلمةإذا وقعت في سياق ما لا تكتسب قيمتها إلا بفضل مقابلتها لما هو سابق ولما هو لاحق بها أو لكليهما معا»، فالمعنى السياقي عند دي سوسيير علاقة بين الدال والمدلول تسمى تلك العلاقة بـ (العلاقات السياقية)،[1] فهناك علاقات تقوم بين الكلمات في تسلسلها، تعتمد على خاصية اللغة الزمنية، كخط مستقيم يستبعد فيه إمكانية النطق بعنصرين في وقت واحد بل تتابع العناصر بعضها إثر بعض، وتتألف في سلسلة الكلام، والتقابل الحاصل بينهما هو ما يجعلنا نفهم طبيعة كل منهما.

و يشير فندريس إلى أهمية السياق في التحليل اللغوي بقوله : « الذي يعين قيمة الكلمة... هو السياق إذ إن الكلمة توجد في كل مرة تستعمل فيها في جو يحدد معناها تحديدا مِؤقتا والسياق هو الذي يفرض قيمة واحدة بعينها على الكلمة على الرغم من المعاني المتنوعة التي في وسعها أن تدل عليها والسياق – أيضا – هو الذي يخلص الكلمة من الدلالات الماضية التي تدعها الذاكرة تتراكم عليها، وهو الذي يخلق لها قيمة حضورية»[2] فالكلمة عنده يختلف معناها بحسب اختلاف الاستعمالات، وتتشكل بحسب الظروف التي تدعوها، يقول: « فالكلمة لا تتحدد فقط بالتعريف التجريدي الذي تحددها به القواميس، إذ يتأرجح حول المعنى المنطقي استعمالاتها ... وهي التي تكوّن قيمتها التعبيرية»[3].

ومن اللغويين الغربيين من أنكر على السياق أثره في الكشف عن المعنى العالم اللغوي (**بالمر –Palmer**) ، وينطلق إنكاره من اعتقاده وجود صعوبات عملية ونظرية معقدة تحيط بالسياق، منها: أنه يمكن معرفة معنى الجملة بمفردها، وبمعزل عن السياق، وبهذا يكون المعنى مستقلا عنه و يستطيع ناطقو اللغة دراسة المعنى من دون الإشارة

---

[1] – صلاح فضل، النظرية البنائية في النقدالأدبي، مكتبة الأنجلومصرية، (دط)، 1978، ص35.

[2] – فندريس، اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، مكتبة الأنجلو المصرية، مطبعة القاهرة، (د ط)، (د ت)، ص 231.

[3] – م ن، ص 235.

إليه، ويضع بالمر بديلا عن السياق بقوله : «إن الافتراض أن هذا يكون بمعنى أننا نستطيع أن نأتي جملة أخرى لها معنى مشابه، أي بجملة مرادفة لها، ولكن لا ينتج عن هذا أننا لو استطعنا أن نعرف جملتين على أن لها المعنى نفسه، أن نكون قد عرفنا كيانا مجردا – إلى حد ما – يسمى : المعنى MEANING »[1].

و أما (بلومفيلد–Bloomfield) صاحب المدرسة السلوكية الأمريكية، فإنه لم يغفل أيضا عن ذكر بعض العناصر السياقية في دراسته اللغوية وإن لم يأت ذكرها صراحة عنده، فإذا كان المعنى واحدا من الأسس التي تقوم عليها النظرية السياقية، فإن بلومفيلد قد أشار غير مرة إلى أهمية المعنى في الدراسة اللغوية، على غير ما رأى بعض الباحثين من أن المدرسة السلوكية قد أهملت المعنى تماما يقول روبنRobin وهو في معرض حديثه عن النظرية السياقية السلوكية – في حين أن معاصره – معاصر فيرث – الأمريكي بلومفيلد كان يقول: « أن دراسة المعنى تقع خارج المجال الحقيقي لعلم اللغة أو على الأقل خارج اختصاص الدراسة اللغوية الحديثة، فقد نص فيرث على أن المعنى يشكل قلب الدراسة اللغوية باعتبارها نشاطا ذا معنى»[2].

كما أن المدرسة السلوكية نجحت في استخدام المنهج العلمي في دراسة ظاهرة اللغة، وكيف أدى بها ذلك إلى الاستغناء عن الجوهر، وهو المعنى وإلى فقدانها الكثير من أصالة الدراسة اللغوية المجدية[3].

غير أن هذا لا يعني أن بلومفيلد وأتباعه قد أخرجوا المعنى من دائرة البحث اللغوي، فهناك الكثير من التصريحات التي تدل على أهمية المعنى عند بلومفيلد، فهو يقول مثلا: " **إن دراسة الأصوات الكلامية بعيدا عن المعنى إن هي إلا دراسة تجريدية**"، وهو يرى من جانب آخر أن البحث اللغوي في صورته المثالية يجب أن يدور في جانبين هما:

---

[1] – بالمر،علم الدلالة (إطارجديد)،ترجمة صبري ابراهيم السيد، دارالمعرفةالجامعية (دط)، 1995،ص70.

[2] – أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص 25.

[3] – عبد النعيم خليل، نظرية السياق بين القدماء والمحدثين، ص 271.

1- الدراسة الصوتية التي تعنى بدراسة الأصوات الكلامية، دون الرجوع إلى المعاني التي تتعلق بها.

2- الدراسة الدلالية، وهي التي تعنى بدراسة العلاقات بين هذه المميزات التي تقوم بدراستها علم الأصوات والمعاني المعجمية للأصوات الكلامية التي تنطق في موقف معين وتؤدي إلى استجابة معينة من قبل السامع[1].

و من هنا يتبين لنا أن بلومفيلد قد وقع في دراسته اللغوية على معظم العناصر التي تكون في مجموعها نظرية السياقية، ولئن كانت هذه العناصر مبعثرة عند بلومفيلد كما هو الحال عند دي سوسيير حيث لا يستطيع الباحث أن يجمع شتاتها إلا بإمعان وإعمال فكر فإن جل هذه العناصر كانت واضحة مباشرة عند فيرث، وهو ما سنتطرق له في الصفحات الآتية:

لقد انطلقت النظربة السياقية عند فيرث، من خلال تصوره الخاص للمعنى اللغوي، حيث تختلف نظرته إلى أن المعنى عن تصور كثير من اللغويين، فقد رأى البعض أن معنى الكلمة عبارة عن علاقة متبادلة أو ارتباط متبادل بين الكلمة، وهي الصورة السمعية وبين الفكرة، وبالتالي تصبح الكلمة عبارة عن علامة لغوية، بحيث أننا عندما نفرق تفريقا أساسيا بين فكرتين، فنحن نستعمل لذلك علامتين لغويتين مختلفتين[2].

لقد اختط فيرث لنفسه منهجا في دراسة المعنى، فدراسة المعنى عنده كما يرى كمال بشر تقوم على ثلاثة أسس هي:

1- وجوب اعتماد كل تحليل لغوي على المقام ((context situation)) مع ملاحظة كل ما يتصل بهذا المقام من عناصر أو ظروف وملابسات وقت الكلام الفعلي.

[1] – عبد النعيم خليل ، نظرية السياق بين القدماء و المحدثين ، ص 273.

[2] – حلمي خليل، الكلمة، دراسة لغوية ومعجمية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د ط)، 1980، ص 121.

2- وجوب تحديد بيئة الكلام المدروس وصيغته، فتحديد البيئة يضمن عدم الخلط بين لغة وأخرى أو لهجة و أخرى، وهذا الخلط من شأنه أن يؤدي إلى نتائج مضطربة غير دقيقة، وذلك لاختلاف المادة التي أخذت منها هذه النتائج.

3- الكلام اللغوي عند فيرث، مكون من أحداث ،وهذه الأحداث معقدة مركبة، ليس من السهل دراستها وتحليلها دفعة واحدة، بل يجب تشقيقها والنظر إليها على مراحل، وهذه المراحل أو الخطوات التي يجب اتباعها عند تحليل الأحداث اللغوية هي فروع علم اللغة، والنتائج التي تصل إليها هذه الفروع هي مجموع خواص الكلام المدروس[1].

4- و من هذا المنطلق الدلالي، ظهر السياق عند فيرث، حيث اِنه رفض فكرة الازدواجية في اللغة التي جاء بها الكثير من الباحثين في دراستهم للمعنى،[2] فقد قال بفكرة التحرر من الازدواجية في اللغة، حيث اعتبرها تعريفات لا ضرورة لها، بحيث أنها مضايقة ويجب إهمالها.

و الحق أن فيرث لم يكن أول من استخدم مصطلح سياق الحال (context of situation) ، بل قد اتخذه من مالينوفسكي أستاذ الأنثروبولوجيا الاجتماعية في لندن، وهو ما سبق ذكره .

و على كل حال فإن لهذه النظرية ثقلها في الدرس اللغوي الحديث ،إذ قد أثبت التحليل اللغوي بكل مستوياته أنه عاجز في كثير من الأحيان عن الوصول اِلى المعنى الدلالي الكامل، دون الرجوع اِلى السياق بكل ظروفه وملابساته، ومن هنا أخذت هذه النظرية مكانتها في الدرس اللغوي.

---

[1] – عبد النعيم خليل، السياق بين القدماء والمحدثين، ص 281.

[2] – م ن ، ص281.

الخلاصة :

و ما يمكن أن نستخلصه من هذا الفصل أن ظهور النظرية السياقية في الثقافة اللسانية الغربية يعد تحولا منهجيا في البحوث اللسانية، فمنذ أن ظهرت البنيوية منهجا بديلا للدراسات التاريخية والمقارنة أحدثت ثورة في هذا المجال، بعد أن أثبتت إجرائيا أن الدراسة تتم على المستويات اللغوية المعروفة، وقد أكدت النظرية السياقية بزعامة فيرث أهمية هذه المستويات كما أضافت التأثير الخارجي للغة، وهو الاحتكام إلى سياق الحال (context of situation) في تفسير اللغة.

و قد اهتم علماء العربية بهذا المجال ؛ ذلك أن هدفهم كان نفعيا بالدرجة الأولى، ولذلك فإن تفسير اللغة قد خضع لهذا المنطق في كثير من الحالات، غير أن ما لفت انتباهنا في هذا الصدد أن بحث النحاة قد اختلف على بحث البلاغيين اختلاف طبيعتهم في البحث، ولذلك نجد النحاة يتصيدون القاعدة والمعيار، ويحاولون إثباتها، فكان موضوعهم اللغة بالدرجة الأولى، أما البلاغيون فإنهم كانوا يتصيدون حِسَان القصائد ومُلَحَ الكلام ليستنتجوا جماليات اللغة من خلاله، ولذلك كان هدفهم الكلام، وعليه حين نحدد مفهوم السياق يجب التفرقة بين البنية و الاستعمال؛ لأننا حين نفسر البنية بالاستعمال أو العكس، فإننا نقع دون شك في مفارقة أو مغالطة منهجية.